منى جبّور

الخلود والحذاء الجديد

كل شيء باهت وساكن .

واغوص في تجاعيد عينيك الدامعتين . واحدق باثلام جبينك . ثم ازحف بنظري الى مسحة ضياء هارب من سواد المدينة .

اي شيء يبقى لنا ؟

واتحسس جدار صدرك قربي ، وارمي اليه خصلة من نفسي . على صدرك اثرُ ندبة . وماذا ؟ من الافضل ان نخنق التساؤل اذا لم يجدِ . وانا اعرف كل ما مضى و كل ما سيحدث .

اتعجب بعد لانني لا اقرر ، ولان المفكرة في حقيبتي تظل خاوية . احفظها لأملأ الفراغ ، ليس الا ؛ وعندما ينتهي العام اقذف بها عذراء . لست ادري لماذا اكره ان افتضّ بكارة ورقة دون هدف .

وانت ! كم انت بعيد عن مجاهلي . يوم عرفتكَ قلت لنفسي : « لماذا لا يكون لي اب كهذا الرجل ؟ » وهمستَ في اذني المطعوجة على خدّك : « لكن عمري ثلاثون عاماً يا عبير ؛ ثلاثون عاما فقط . وانتِ في العشرين . لاكن لك اي شيء عدا الاب . لاكن ... »

واذكر كيف غاصت عيناك في تجاويف التساؤل والتردّد ، وكم ارتجفت الجوزة في عنقك الطويل لان المكان كان حارا مقيتا . ومع هذا كنت اتنفس انا بسهولة ، بهدوء . لا شيء يهزّ اعصابي . زملائي في الشركة يقولون انني بلا احساس ، اني حجر مرميّ على الكرسي ، اني كالطاولة ، كالآلة الكاتبة التي يثنّ فيها تحت يدي شيب الكبر . وانا اضحك ، اهذي . انا اعرف كل ما مضى وكل ما سيحدث . لذا كنت اتنفس بسهولة ،

بهدوء ، واميّز بوضوح الشعرة البيضاء في شاربك الكثيف ، والبثرة الحمراء النابتة قرب انعطاف انفك المتحدّي على خدّك .

وعندما طرانا المنعطف المحاذي لبيتك في الزاروب الضيق حيث تتربع غرفتي الخشبية بأباء وبرودة ، شددتَ على يدي المعضلة وقلت :

« احب ... احب ان اراك » .

ليس يكفي ان نحب . اقول هذا كلما ضحكت . لكنني لا اضحك الا في مواسمي . تماماً كما لا تمطر السماء في بلادي الا في مواسمها . ليس يكفي ان نحب .

وتردد ابداً غرفتي صدى تنهدة بلا فروع . ثم ادخل ، اسعل ، واشعل المصباح . واسرع اصبّ الماء في الابريق الفخاري المركّز على كرسي خشبي مفخوت في الطشت المجلّف ، واغسل وجهي ويديّ ، ثم اشم لزندي رائحة تبـــغ كالذي ترضعه انتَ باستمرار . واغفو ، دون ان افكر ، دون ان احلم . انني اعرف كل ما مضى وكل ما سيحدث . ومن العبث ان نخطط .

« لا » ، تقول لي عيناك ، « يجب ان نخطط . يجب ان تكوني لي يا عبير ، لي وحدي . افيق على شعرك المفروش على الوسادة ، وعلى ارنبـــة انفك الصغير كأنف طفل مستقر . يجب ان نقرر المصير ، فغداً يلزمنا عزم جديد غير هـــذا لنبني ، لنكدّس الايام بقوة وفائدة . ايّ نفع لصراعنا يا حبيبتي ؟ »

واضحك في موسمي .

ايّ نفع لصراعنا ؟ وايّ نفع لجبروتك ايها القويّ ؟ اي نفع لنظارتيكَ السميكتين وللشعرة البيضاء في شاربك الكثيف ؟

واضحك في موسمي ثم امضي . واعود اليك كل يوم . وفي الساعة نفسها . تماما كما تعمل الآلة الكاتبة بدقة ، كما يعلو المصعد الخشبي الى طابقك الخامس دون ان يناقش حركته . ولا انسى ان اذرّ على وجه جارك السمين نظرة فارغة باسمة . وادخل . اسلّم . تضغط على اصابعي دون ان أحسّ . وازحزح الكرسي المحـــاذي لمكتبك واجلس ، ثم ارفع قدمي اليمنى اسندها بركبتي اليسرى ، وارمي حقيبتي الرخيصة تغفو قرب حذائي . وقبل ان امسح عرق جبيني بمنديلي الورقيّ المولك ، احدق في وجهكَ قليلاً وابتسم ، وابدأ اسئلتي التقليدية عن صحتك وعملك ، وعن مصير كتابك الجديد ــ وانا لا ادري

اذا كان يهمني كتابك الجديد – عليّ فحسب ان ابرّر تصرفي وزيارتي ، اريد ان ادع الرجل المنزوي في الزاروب المجاور يعرف انني اتيت لاقول شيئا ، لاعرف شيئا .

وتسألني انت باستمرار :

« وانتِ ، هل عملتِ شيئا ؟ »

« لا شيء ، طبعاً ، لا شيء » .

وتعود تسمّر عينيك على جبيني : «ولم تقرري شيئاً ؟ »

« لا شيء ، طبعا ، لا شيء » .

وكأنك تسألني ماذا اتيتِ تفعلين ؟ تغمض عينيك ، وتمضغ شفتك السفلى بكثير من الحقد ، ثم تصرخ بالصبيّ المنتظر خلف بابك : « قهوة يا صبي » ، وتعود الى فلفشة اوراقك ، الى مرمغة اوراقك ، الى خنق اوراقك . وفي رأسك اسلاك تدور ، تدور ، وتلتقي . ثم تبصق على شفتك آهة ، وعلى انفك رغبة رعناء للحكّ والتمسّح .

واسألك : « هل كتبت اليوم ؟ »

« ابداً » .

« هل عملت اليوم ؟ »

« ابداً » .

وتضمني الى صدرك عند المساء : « ابداً يا عبير . بدونك لا شيء . لا شيء جفاف انا . صنم . ليس لي وجود » .

واضحك في موسمي : « لكني عطشى ،واشواك الصبير على لساني تغلق اذني وتصمني » .

« ما اروعك ! لهذا احبك يا حلوتي ، يا غنية الاحلام والرؤى » .

واضحك في موسمي ، وأغبّ كل ليلة من المحل المشلوح عند الزاوية شرقةَ مرطّب وامشي . خطاك خلفي ، قربي ، امامي . لا حدود . تقول :

« لي – لي اريدك . اريد ان اسيح الجمود بعينيكِ . اتسمعين ؟ »

(لماذا تسيتُ امس ان اسيّح كدس الشمع واصبّ منه شمعة ؟)

« اريد ان انطلق ، ان اعطي . لقد خنقني نتن الجمود » .

(ولماذا لم افتح نافذتي الشرقية حتى اقتل رائحة الخباء عندي والرطوبة ؟)

« سأبني قصراً لك دربه من رخام » .

(نسيت ان اغطّي جورة الوحل قرب مـــدخلي بالحصى حتى لا اعود اقشر كعب حذائي كل يوم) .

« هل توافقين يا عبير ؟ قولي نعم . قولي . اموت انا ، احترق . اريد ان انطلق . بدونك لا شيء انا . منذ ايام طويلة لم اعطِ ، لم اكتب . كتابي لن ينتهي . انـــا قلق مدمّر . قولي نعم » .

واضحك في موسمي : « ربما » .

وتثور انت : « اخنقي هذه الربما . قولي نعم . نعم . دعيني ابدأ وانطلق » .

« ربما » .

« اسكتي يا عبير ... اخرسي . انت من غير احساس » .

« ربما » .

وتزعق انت : « أمجنونة أنت ؟ »

« ربما » .

« وتثابرين ؟ »

« ربما » .

وتصرخ تهزني : « هل انت ميتة ؟ »

واخنق تثاؤبتي العريضة : « ربما .. رب .. ما » .

وتغوص قدمي في جورة الوحل قرب المدخل ، ويحمرّ حذائي . وقبل ان انطوي اسمعك تقول :

« فكري والا سأمضي ، سأنتحر » .

واضحك في موسمي ، ثم اصبّ كتل الشمع شمعة جبارة اضيئها . واغسل يدي في الطشت المجلف . وبعدما اغفو استفيق . واشعر ان للبرد اضراسا قوية ، فاقوم ، واعود اشعل الشمعة فتنطفىء . واشعلها وتنطفىء . واشعلها وتنطفىء : النافذة تحطم فيهـــا الزجاج . وعلبة الثقاب فرغت . ولحافي تمزق غطاؤه وخف . ومعطفي ذاقـــه العثّ واستطيبه . البرد يقرص انفي بقسوة . واعود اتمدد ، اتكوكر ، اغفو .

وتقول لي في الصباح : « هل فكرتِ ؟ »

« ربما » .

« لعلكِ تلذذتِ بالدفء وغفوتِ ، فقد كان المساء بارداً » .

« ربما » .

« لكنني لم اغفُ انـــا يا حبيبتي ، لم انم : فكرتُ فيكِ باستمرار . تخيلتكِ تغفين قربي لاهثة . دفؤك يطرد عني الجمود » .

(لماذا لم الهث امس على اصابع يدي حتى تدفأ ؟)

« وحلمتُ انكِ تفيقين في الصباح ، فاركع واصبّ في شفتيكِ القهوة التركية التي تحبين » .

(منذ ايام لم اذق القهوة في غرفتي لان طبّاخي بدون نفط) .

« ورأيتك تتعلقين بعنقي ، وتمرغين صدري بالقبل » .

(كيف نسيت ان اشتري طلاء لامعاً لشفتيّ ؟)

« وحلمت ايضاً انني انكبّ على مؤلفي بفجع واكتب ، واعطي ، ويصفق لي الجميع ، ويضحك لي الجميع . ويقول لي ناشري الكبير : سافخر بك يا صديقي » .

(صاحب الشركة قال انه اصبح بغنى عن كسلي ابتداء من الاثنين) .

زفرت . تنهدت . فغمرتني بصدرك ولهثتَ بوجهي : « هل قررتِ يا صغيرتي ؟ قولي نعم . سأحقق لكِ كل هذا . سأبني لك بيتا يطلّ على القمر والبحر وستشعرين معي بالدفء والاستقرار . وساخلص اصابعك هذه الالهية من العمل لانها لشفتي خلقت . ساعبدكِ يا عبير . ساخلدكِ . سأهديكِ كل مؤلفاتي ، كل حرف اكتبه » .

وضحكتُ في موسمي .

« قولي نعم يا حبيبتي . دعيني ابدأ . دعيني اعانق الوجود . دعيني احيا » .

واستدرتُ نحو قفاي . ورأيتُ حذائي الملوّث بالتراب يستغيث . والالم ينقر رؤوس اصابعي بحنق .

« قولي نعم . دعيني ابدأ » .

« وأيضاً ستشتري لي حذاءً ؟ »

« سأشتري لكِ الخلود » .

« اريد حذاءً » .

« لكِ ما تشائين . قولي نعم » .

وضحكتُ في موسمي .

وقلتُ : « نعم » .

قبل سنين ، حينما كنا نمرّ امام ساحة ترفلغار ، كنا نجمد فيها كل مرة ، وكانت تقول : « ها انت » ، وتشير الى نصب نلسون السامق الراسخ ، ثم تشير الى احدى الحمامات العابرة وتضيف : « وها انا » . وكل مرة كانت تغيب ، كانت تعود لخاطري صورة النصب والحمامة . في احدى فترات غيابها كتبتُ هذه المقاطع المغرقة في الرومنطيقية ، وقرأتها عليها ، بلغتها ، عندما عادت . ولما غابت بعدها من جديد كان غيابها آخر غياب . فانها لم تكن حمامة وحسب ، بل كانتها وكانت غرابا .

ا . ع .

أسعد عاصي

آثار أقدام

من هذا العلوّ الشاهق انظر . لا ارى الناس. والحافلات والمباني تَغبَش متحرك وساكن . وانا جامد في هذا العلاء ، عاجز حتى عن الدوار .

ولم اكن ، من قبل ، اعرف ان في الصخر ايضاً درجات ، فاذا بالحمامة الغريبة تترك الصخر الذي صُنعتُ منه ، حين تولّي ، اصلبَ منه بالامس .

واذا ذاكرتي كعينيّ ، نصفها ميّتٌ ، وكلّ ما لا يتصل بالحمامة الغريبة مُضاعَ .

من تحتي المظاهراتُ والهتافات العنيفة ، والعاشقون والباحثون عمن يعشقون، والمصورون والنشالون والشرطةُ ، والاجانب والمواطنون ؛ وعن قريبٍ القصورُ والمجالس والمتاحف والكنائس ،